

المدينة المنورة في شعر محمد إقبال



د. إبراهيم محمد إبراهيم (م)

من بين الموضوعات التي تناولها كثير من الشعراء قبل إقبال من خلال مدائحهم النبوية «المدينة المنورة»، وقد وصفوها فأحسنوا وأجادوا، لكنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه إقبال حين وصف المدينة بأنها مكان التجلي لرسول الله ﷺ تماماً مثل جبل الطور الذي تجلى عليه الله تعالى لموسى عليه السلام، ففي قصيدة له بعنوان «بلال» رضي الله عنه نشرت في سبتمبر عام ١٩٠٤م في جريدة مخزن^(١) يتحدث إقبال عن المدينة المنورة مقرر رسول الله ﷺ وما تمثله بالنسبة لبلال رضي الله عنه، فهي له كالطور بالنسبة لموسى عليه السلام، حيث أتيح لموسى عليه السلام الحديث إلى الله فوق جبل الطور، وأتيح لبلال^(٢) رضي الله عنه رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة. يقول ما ترجمته:

- كانت المدينة نورا لعينيك، وكأن هذه الصحراء لك بمثابة جبل الطور^(٣).
- وفي قصيدة أخرى بعنوان «بلاد إسلامية» نشرت في إبريل عام ١٩٠٩م في جريدة مخزن يخاطب إقبال مدينة رسول الله ﷺ قائلاً ما ترجمته:
- يا مثوى المصطفى، أنت الأرض التي تعتبرها الكعبة أعظم من الحج الأكبر^(٤).
- أنت متلاثة كالفص في خاتم الوجود، وعلى أرضك ولدت عظمتنا.
- وفيك استراح ذلك السيد المعظم الذي وجدت أمم الدنيا في جواره الأمن والأمان.
- ذلك الذي صار من يحمل اسمه ملكا للعالم وخليفة قيصر ووارث جمشيد.
- لو أن للقومية الإسلامية مكانا بعينه، لم تكن الهند هي ذلك المكان، ولا فارس ولا الشام.
- أم يا يثرب! أنت وطن المسلم ومأواه، وأنت محور إشعاعات الأحاسيس.
- وسنبقى نحن في الدنيا ما بقيت فيها أنت، فأنت

الصباح في الحديقة ونحن فيها الندى^(٥).

فإقبال يرى المدينة مركزا للمسلمين، وهي قبلتهم، وحول كعبتها يتحلقون^(٦)، وهي رمز عظمتهم، وفيها تم الدين الإسلامي واكتمل، وشرفها من وجود رسول الله ﷺ بها.

ولا تقتصر نظرة الاحترام والتقدير عند إقبال على المدينة المنورة فقط، وإنما يخص بها أيضا شبه الجزيرة العربية كلها وخاصة الحجاز حيث أمير القافلة الإسلامية محمد ﷺ. يقول ما ترجمته:

• أيتها الأرض الطاهرة، بذلنا حياتنا فداء لحرمك، ولا تزال دماؤنا تجري في عروقك.

• وأمير قافلتنا هو سيد الحجاز ﷺ، وراحة نفوسنا باقية ببركة اسمه.^(٧)

والمدينة المنورة في نظر إقبال ليست مجرد مكان، والذهاب إليها وقت الحج ليس مجرد إتمام شعيرة من شعائر الدين، وإنما يكون الذهاب إليها وتحمل المشاق في سبيلها إظهارا لمحبة رسول الله ﷺ، والهدف هو المثل بين يدي رسول الله ﷺ وزيارته مهما كان في ذلك بذل للروح والمال^(٨)، وهذا هو فحوى إحدى قصائد إقبال تحت عنوان «حاج في الطريق إلى المدينة»، وتحكي قصة حاج نجا من الموت عندما هاجم اللصوص القافلة التي كان يسير معها في طريقه من مكة إلى المدينة، فقتل من قتل، ونجا من نجا. وعاد الناجون مرة أخرى إلى مكة، وبقي هذا الحاج مصمما على إكمال المسير حتى المدينة، وهذه ترجمة لبعض أبيات القصيدة:

• يقول الخوف «لا تذهب إلى يثرب وحدك»، ويقول الشوق «إنك مسلم، فامض بشجاعة».

• هل أعود إلى بيت الله دون زيارة (الروضة الشريفة)، وكيف أري وجهي للعشاق يوم الحشر؟

• لا يخاف السائرون في صحراء الحجاز على أنفسهم شيئا، هذا هو السر الخفي في هجرة المشوى في يثرب^(٩).

ولا يفوت إقبال أن ينسب نفسه كمسلم إلى الحجاز ويفخر بهذا النسب، فيقول في قصيدته «شكوى» التي قرأها في اجتماع جمعية حماية الإسلام في أبريل عام ١٩١١م ما ترجمته:

• إن كان دني عجميا فإن خمري حجازي، وإن كانت أغنيتي هندية فلحنها حجازي.^(١٠)

وكم أحسن الشيخ الصاوي علي شعلان في ترجمة هذا البيت إلى العربية شعرا إذ قال:

أنا أعجمي الدن لكن خمري

صنع «الحجاز» وكرمها الفيان

إن كان لي نغم «الهنود» ولحنهم

لكن هذا الصوت من «عدنان»^(١١)

وهكذا فإن أشعار إقبال الأردية تمتلئ بالحديث عن الأراضي المقدسة، ولكن بأسلوب يثبت في ذهن القارئ ما يريد إقبال بثه إليه من فلسفة تهدف إلى إيقاظ المسلم من سباته، وتعريفه بذاته، وحثه على التمسك بدينه.

ومن بين أشعار إقبال الأردية قصيدته «في حضرة رسول الله ﷺ» التي يناجي فيها رسول الله ﷺ ويبيته شكواه مما نزل بالمسلمين من مصائب على يد المستعمر، وقد نظم إقبال قصيدته هذه في الفترة التي هاجم فيها الإيطاليون ليبيا^(١٢)، ويتخيل إقبال في هذه القصيدة حوارا يجري بينه وبين رسول الله ﷺ. يقول ما ترجمته:

• عندما ثقل علي ما يحدث في العالم، حزمت أمتعتي ورحلت منه.

• ورغم أنني مكبل بقيود الصباح والمساء، لكني لم أوطد علاقتي بنظام هذا العالم العتيق.



• إلا أنني أحضرت إبريقاً زجاجياً هدية لك، وما فيه لا يوجد حتى في الجنة،

• فيه تتلأأ حرمة أمتك، فيه دماء شهداء طرابلس^(١٣).

• أما إقبال نفسه فقد كان يتمنى أن يلقي ربه في أرض الحجاز، وإن لم تتحقق هذه الأمنية فروحه دائماً كانت معلقة بها، يقول ما ترجمته:

• إني أبحث عن الموت في أرض الحجاز^(١٤).

هذا: والأشعار التي كتبها إقبال - رحمه الله - في هذا المجال كثيرة جداً، ولكننا نكتفي بما ذكرناه على سبيل المثال لا الحصر تجنباً للإطالة في البحث ■

• اصطحبتي الملائكة إلى مجلس رسول الله، أخذوني إلى حضرة من صفته رحمة للعالمين.

• قال لي المصطفى: يا عندليب روضة الحجاز! احترقت البراعم من حرارة أنفامك.

• وقلبك دائماً منتش بشراب المحبة، وتواضعك تفبطك عليه السجيدات الخاشعة.

• لقد طرت من قاع الدنيا إلى الأفلاك، وعلمتك الملائكة التحليق في الأعالي،

• جئت من حديقة الدنيا كالشذى، فماذا أحضرت لنا من الهدايا؟

• قلت: يا سيدي، لا أجد في الدنيا راحة، والحياة التي أبحث عنها لم تتيسر لي،

• ومع أن رياض الوجود تمتلئ بآلاف الورود والزهور، لكنني لم أصادف ذلك البرعم الذي تفوح منه رائحة الوفاء.

الهوامش:

(*) رئيس قسم اللغة الأردنية بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر فرع البنات بالقاهرة - مصر.

والمقال من موقع الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب ملخصاً.

١- جريدة مخزن كان يصدرها في الهند الشيخ عبد القادر وهو أحد أصدقاء إقبال.

٢- لعل المقصود هو سلمان رضي الله عنه، فهو الذي كان يبحث عن الرسول ﷺ، ولقيه في المدينة المنورة. أما بلال رضي الله عنه فقد كان بمكة وأسلم منذ بدء الدعوة، وقصته معروفة. (التحرير)

٣- كليات إقبال، اردو - بانك درا - بلال - ص ٨١.

٤- هذه الترجمة بحاجة لمراجعة، صياغتها

العربية قلقة في معناها. (التحرير)

٥- كليات إقبال، اردو - بانك درا - بلاد إسلامية - ص ١٤٦.

٦- وهذه العبارة أيضاً بحاجة لمراجعة، إذ لا يمكن اعتبار المدينة قبلة المسلمين، والكعبة في مكة وليست في المدينة. (التحرير)

٧- كليات إقبال، اردو - بانك درا - ترانه ملى - ص ١٥٩.

٨- زيارة المدينة تقصد لزيارة المسجد النبوي عملاً بهديث: «لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد... الحديث. وهناك يسلم على الرسول ﷺ، وصاحبيه رضي الله عنهما، ويزور الأماكن التي وردت زيارتها

في الأحاديث، وغير ذلك من المباحات لا تدخل في العبادة المشروعة. (التحرير)

٩- كليات إقبال، اردو - بانك درا - ايك حاجى مدينه كراست مين - ص ١٦١.

١٠- كليات إقبال، اردو - بانك درا - شكوه - ص ١٧٠.

١١- د. أمجد حسن ود. إبراهيم محمد إبراهيم، شاعر الشرق محمد إقبال - ص ٦٢.

١٢- غلام رسول مهر، مطالب بانك درا - ص ٢٤٧.

١٣- كليات إقبال، اردو - بانك درا - حضور رسالت مآب مين - ص ١٩٧.

١٤- كليات إقبال، اردو - بانك درا - شفا خانه حجاز - ص ١٩٨.